

العالية الإسلامية: بين النموذج المعرفي والديباجة الحركية

كتبه حسام سلام | 26 يناير، 2017



لا يكاد إسلاميٌّ معاصرٌ، إصلاحِيٌّ كان أو جهاديٌّ، إلا ويدعو في حماسٍ، نافراً عروقه، إلى (الخلافة) و(العالية) الإسلاميتين، مُجتزاً من حقيبتيه التاريخيّة نماذج السيادة والقوّة والعدل التي سادت العالم في عصر الإسلام الذهبي، غاصّاً طرفه عن حقب مديدة من الانحطاط والضعف والوهن في التّاريخ الإسلامي، نازعاً عنه إنسانية تجربته، آخذاً بقشور تجربته السياسيّة دون تجربته المعرفيّة التي بُنيت عليه عالميته وحضارته تلك، ليأتي بعد ذلك ساخطاً، ويصبّ جام غضبه على واقع الحضارة الغربيّة/الوضعية/الجاهلية/الجائرة، داعياً بيقين المُخلص لعودة الخلافة الإسلاميّة التي لا يعرف عنها هي الأخرى في الحقيقة شيئاً!

نستعرض في هذه المقالة - بشكلٍ مُقتضب - دائرتين أو مستويين من الفعل الإسلامي تجاه هذه القضية التّمتّظرة في (العالية، الخلافة، الأستاذية) كديباجة دعائيّة، وكغاية نهائيّة لكلّ جهدٍ إسلامي سواء كان هذا الجهد يصبّ في الفضاء المعرفي الإسلامي أو المجال الحركي الإسلامي العام، مُتخذين (مشروع العالية الإسلامية الثانية) للمُفكر السوداني الموسوعي محمد أبو القاسم حاج حمد نموذجاً لذلك الجهود المعرفي الفاعل في مستوى الفضاء الأول، و (مشروع الإخوان المسلمين) باعتبارها أم الحركات الإسلامية المعاصرة نموذجاً حركيّاً للمستوى الثاني.

النموذج المعرفي: مشروع العالية الإسلامية الثانية؛

تجربة شخصية مع الكتاب

“العالية الإسلامية الثانية” ؛ عنوانٌ أثيّر وقع أمام عيني، فأمسكْتُ بدفتيّ الكتاب، أبحث عمّا فهمتُ أنه كتابٌ سياسيٌّ سوف يتحدث عن ماضينا الغابر، وأحلامنا العالقة التي لا تعلم للواقع سبيلاً. لم يمنعي جهلي بالكاتب أن أتعرف عمّا كتب، وببحث سريع على الشبكة العنكبوتيّة تكشّف لي كم

جهلي بذلك المفكر السوداني العبقري، محمد أبو القاسم حاج حمد، وإذ بي أبدأ بقراءة مدخله التأسيسي الذي تجاوز الـ 150 صفحة ومن ثمّ المجلد الأول بكامله دون انقطاع.

إنّ الواجب الآن على تلك الأمة الوسط الشاهدة على الناس أن تبدأ رحلة طويلة من التأسيس المعرفي، مُنطلقةً من النص القرآني والسُنّة الصحيحة، وباستيعاب كامل وتام لأدوات المعرفة الإنسانية

لقد تفتّحت عيني على فضاء آخر، أكثر رحابة من ضيق الأيدولوجيا والقوالب المعرفية سابقة الصب، فعلمتُ لماذا وضع له عنواناً فرعياً (جدلية الغيب والإنسان والطبيعة)؛ فالكتاب يُمثل الجانب الفلسفي/النظري لمشروع ضخم بنفس العنوان، ينطلق من (جدلية الغيب والإنسان والطبيعة) ومن خلال (الجمع بين القراءتين) – أي القراءة الإلهية الغيبية من جهة والقراءة الإنسانية الموضوعية من جهة أخرى – ، وبأسلوب (منهجي ومعرفي) يعتمد على (التحليل والتركيب)، ومن هنا يُصنّف الكتاب وكذلك مشروع العالمية الثانية في دائرة (الفلسفة) أو (علم الكلام).

مشروع العالمية الإسلامية الثانية

لقد استطاع “حاج حمد” أن يؤسس لمنهجية قرآنية جديدة تتعامل مع الاسترجاع النقدي التحليلي (القرآن بين التصديق والهيمنة)، أي باعتباره الكتاب الخاتم المُصدّق لما قبله، والمُهيّمن عليه كذلك ليضبط كل الانحرافات العقدية/الفكرية/الإجتماعية/السياسية/الإقتصادية التي طرأت علي حالة التناسق الكوني بين الإنسان والطبيعة، يرجو “حاج حمد” تحقيق ذلك من خلال إعادة قراءة ومن ثمّ كتابة (المعرفة الإنسانية) وفق المنهجية القرآنية، والجمع بين القراءتين بمنطق (التحليل) لا (التفسير) أي الصعود بالواقع إلى النص، لا إسقاط وتأويل النص على الواقع. فهو لا يدعو إلى تفسير (عصراني) للقرآن، يأوّل النص لصالح النظريات العلمية المهيمنة الآن علي شتى مجالات المعرفة الإنسانية، وإنّما يدعو إلى عملية مُكابدة طويلة وعميقة للنص القرآني، لتحليله تحليلاً دقيقاً يصل إلى تحليل أدقّ تركيباته اللفظية؛ فكل لفظة في القرآن الكريم عند “حاج حمد” هي مقصودة بذاتها، ولها دلالتها التي تختلف لو تم استخدام لفظة أخرى.

لتعبير (العالمية الإسلامية الثانية) دلالة مُهمّة عند “حاج حمد” حيث يطرح تنامي ما أسماها (الدورات الدينية الأربعة)، بدايةً بالدورة العائلية (آدم) ثم الدورة القبلية (بنو إسرائيل) ثم الدورة الأمّية (العالمية الإسلامية الأولى) التي شملت غير الكتابيين، ما بين المحيطين: الأطلسي غرباً والهادي شرقاً. ثم الدورة العالمية الشاملة (العالمية الإسلامية الثانية) حيث يظهر الهدي ودين الحق على مستوى العالم كله؛ فيستوعب كافة الأنساق الحضارية والدينية، وهذه هي الأطروحة التبشيرية لحاج حمد لعملية (الخروج العربي) كما أسماه وسط حالة (تدافع) مُستمرة مع المشروع الإسرائيلي.

وبشكلٍ عامٍ؛ يُمكننا القول بأنّ مشروع العالمية الثانية لـ “حاج حمد” يتقاطع في مداه المعرفي مع مشروع صديقه الدكتور طه جابر العلواني؛ أخذاً الأول (الفلسفة) كمدخل، والثاني (التاريخ) كمدخل،

لا يخف على عاقلٍ بأنَّ كُلَّ الحركات الإسلامية المعاصرة، أو بمعنى أشمل الحالة الإسلامية بشكلٍ عامٍ تُعاني من إشكال ومأزق حقيقيين يتمثلان في فقرها المعرفي الشديد في مجال العلوم الطبيعية والإنسانية

ليست أطروحات “العلواني” وحدها من تُشارك مشروع العالمية الثانية؛ ف الدكتور خليل أحمد خليل في كتابه (جدلية القرآن) يُقدِّم مدخلاً مُهمًا للغاية حيث ينطلق من القرآن كجذر في تكويننا الحضاري، صاعدًا إليه تحليلًا بوعي علمي، يعرف حدود وكيفية استخدامه للعقل الأوروبي في تشخيص القرآن. كذلك مع تجاوزه (التفسير) إلى بدايات (التحليل) ليس بهدف (العصرنة) خلافًا لمصطفى محمود وغيره، ولكن بهدف الفهم من خلال التركيب نفسه.. حتى يمكننا القول بأنَّ “خليل” قد صعد إلى القرن السابع وهو يحمل معه كل أدوات القرن العشرين، كما وصفه “حاج حمد” في كتابه.

وفي جانب فلسفي آخر، يأتي مشروع الدكتور عبد الوهَّاب المسيري - رحمه الله - ليملاً فراغاً وجانباً كبيرين ومُهمين كذلك من خلال عملية التفكير والتركيب للفلسفة الغربية المُركزة على جوهر علماني استطاع “المسيري” باستخدام أدوات مدرسة فرانكفورت النقدية أن يُفككها ويُركبها في مجلديّ (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) بشكلٍ خاص، وكتاباتهِ الأخرى بشكل عام.

وحق لا ينفلت جوهر المقال من بين أيدينا؛ نريد القول بأنَّ مشروع العالمية الثانية، وغيره من المشاريع الأخرى التي تتقاطع معه في الفضاء المعرفي الإسلامي تُحاول أن تُعالج الجانب النظري من (جدلية الغيب والإنسان والطبيعة) انطلاقاً من (الجمع بين القراءتين) كرؤية كونية تُحقق مُطلق الإنسان بالاستناد إلى (منهجية القرآن المعرفية) والوحي القرآني (كمعادل موضوعي ومطلق للوجود الإنساني وحركته)، وذلك في مقابل (الخصائص الوضعية للحضارة العالمية الراهنة وأزمته). مؤكداً ضرورة (الاستيعاب والتجاوز) لمختلف المناهج المعرفية والأنساق الحضارية بمنطق تحليلي ونقدي وفق ذات الرؤية الكونية. وهو هم معرفي لازال يحتاج لمجهودات ضخمة كي تستطيع اللحاق بفجوة قرنين من الزمان أو أكثر.

مستوى الحركة: الإخوان المسلمون نموذجاً؛

الفرد المسلم، الأسرة المسلمة، المجتمع المسلم، الدولة المسلمة، الخلافة وأستاذية العالم؛ بهذه التراتبية الحسابية والصعود المنطقي أرسى الإمام حسن البنا مشروعه - أو بمعنى أدق - هكذا فهم من أتوا بعده وفي هذا تفصيل ليس هذا مقال، مُكتفياً ومُعتمداً في عصره على ما قدّمه (الإصلاحيون الرواد) من نظريات وتصورات فكرية ومعرفية أمثال الأفغاني وعبد ربه ورشيد رضا، صارفاً جُلَّ همهم وحركته لهم (التعريف) و (التكوين) و(التنفيذ)، وفق منظومة وماكينة (تكتيل) أكبر عدد ممكن من المسلمين على فكرته المبسطة، بتنظيرات حركية مُركزة وسهلة الفهم عن طريق رسائله المُقتضبة.

وطوال عمرها المديد لما يربو من التسعين عاماً؛ لم تُوفّر جماعة الإخوان المسلمين - نظراً لطبيعة

تكوينها الحركي وضعف كودارها الفكرية - آية مساحة جادة لعملية تأسيس معرفي، وتأسيس شرعي/فكري لقضايا الحكم والسياسة والمجتمع، مقابل تعاضد الهم الحركي في جانبه السياسي (الإجرائي) من انتخابات وخلافه بشكل خاص.

يُمكننا القول بأنَّ مشروع العالمية الثانية لـ "حاج حمد" يتقاطع في مداه المعرفي مع مشروع صديقه الدكتور طه جابر العلواني؛ آخذًا الأول (الفلسفة) كمدخل، والثاني (التاريخ) كمدخل، منطلقين من منهجية واحدة هي (الجمع بين القراءتين)

فمنذ تأسيسها وحتى الآن؛ لم نجد كتابًا واحدًا لُنظريها القلائل يتحدث فيه عن مفهوم (الأستاذية) كروية كونية، ونسق معرفي، ومنظومة حضارية، بل كانت جلها تنظيرات (أدبية) تقترب من كونها ديباجات طوباوية عن خصائص الدعوة من كونها ربانية، وعالمية، وشاملة.. إلخ من تلك الخصائص التي توجد بأي مشروع أيديولوجي ذي طابع عالي.

حتى أنَّ تلك التحولات المنهجية التي مسّت صميم أطروحاتها الفكرية والحركية، وتحولها من جماعة أممية إلى جماعات فطرية منذ السبعينات، ظلّت تعمل في حدود النطاق الجغرافي والمُتاح السياسي كأى حزب سياسي، مُتخيلةً بشكل عملي عن دورها العالي والإقليمي، الجدير بالدراسة هنا أنَّ هذه التحولات كانت لها سمة مُميّزة في كونها تحولات فكرية (لاحقة) للتحرك السياسي للجماعة، أي أنها كانت (ناتجة) و(مُبرّرة) للحركة، غير (مُنتجة) و(مُنشئة) لها، وذلك نظرًا لطبيعة المسلكية الإخوانية - إن صحَّ التعبير - في التعاطي السياسي مع السياقات السياسية/الإجتماعية/الاقتصادية للمجتمع والدولة على السواء.

الإشكالية الأساسية في مسلكية الجماعة تلك - والتي تتشارك معها فيها كل الحركات الإسلامية المعاصرة - أنها تؤدي بالنهاية لتحول منهجي (غير مقصود) يخضع لمصلحة سياسية، قد يكون لها وجهاتها في فترة ما، ولم تلك أصلًا في منهج الجماعة؛ فتحل المصلحة المتغيرة محل الغاية المنضبطة بالوحي ورؤيته الكونية التي على أساسها انبنت الجماعة ابتداءً.

لقد استطاع "حاج حمد" أن يؤسس لمنهجية قرآنية جديدة تتعامل مع الاسترجاع النقدي التحليلي (القرآن بين التصديق والهيمنة)

لا يخف على عاقل بأنَّ كل الحركات الإسلامية المعاصرة، أو بمعنى أشمل الحالة الإسلامية بشكل عام تُعاني من إشكال ومأزق حقيقيين يتمثلان في فقرها المعرفي الشديد في مجال العلوم الطبيعية والإنسانية وجمودها وقصورها في مجال العلوم الشرعية لدرجة أنّها لم تُعد قادرة على تعريف الإسلام ابتداءً ولا أولوية عملها برؤية كونية شاملة.

فمن خلال النموذجين المعرفي والحركي الذين استعرضناهما بشكلٍ سريع، يتضح لنا ذلك الهم التنظيري المهول الذي يحاول أن يسد ثغره منظرون قلائل، والذي يقع في مستوى ودائرة تعمل في فضاء أعلى بكثير من مستوى ودائرة الهم الحركي والفعل السياسي، مع اتساع حجم الفجوة بينهما، كل ذلك يؤدي بالنهاية لتخبُّط وفقدان وجهة الفعل السياسي، في حين تقبع الأطروحات الكونية تلك بين دقّات الكتب وحيز ندوات المثقفين.

إنّ الواجب الآن على تلك الأمة الوسط الشاهدة على النَّاس أن تبدأ رحلة طويلة من التأسيس المعرفي، مُنطلقةً من النص القرآني والسُّنة الصحيحة، وباستيعاب كامل وتام لأدوات المعرفة الإنسانية، ثم تجاوزها وفق رؤية كونية واحدة قبل ولوج عمليات جديدة من الفعل الحركي دون تحديد أولويات المرحلة في كلا الجانبين المعرفي والفكري من جهة والحركي المجتمعي من جهة أخرى.

وأخيراً؛ على الإسلاميين المُشتغلين بقشور السياسة أن يعرفوا ومن ثم يُعرّفوا أنفسهم ابتداءً، وعلى أساس من نحن؟ تخرج إجابة ماذا نريد؟ وإلا ستذهب أجيالٌ وراء أجيال دون مردودٍ يليق بحجم التضحيات الهادرة، ودون أي تأثير حقيقي في حركة التاريخ.

رابط المقال : [/https://www.noonpost.com/16357](https://www.noonpost.com/16357)